

الطيب صالح

مريـــود

رواية

كتاب الدوحة

مریود

يُوزّع مجّاناً مع العدد (112) من مجلّة «الدوحة» - فبراير - 2017

مريود (رواية)

المؤلف: الطيب صالح

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف:
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبّر -بالضرورة- عن رأي مجلّة (الدوحة) أو (وزارة الثّقافة والرياضة)

مريود

الطيب صالح

روايـة

نشرها المؤلف في حلقات بمجلّة (الدوحة)

(يوليو - أغسطس - سبتمبر - أكتوبر)

1977

كتاب الدوحة


غير أني قائل ما أنا ذاكر
من ظنوني مكذب للعيان
آخذ نفسي بنا ليق شيء
واحد في البغداشي العاني
قاتم في الوعر حتى إذا ما
رُمت رُمنة مُسمّى الكان
ابو نواس
Salahi '77

(1)

ملأ صدره بالهواء، وترك وجهه يغتسل بنسيم الفجر، لكن روحه لم تنتعش.

تريث قبل أن ينحدر في الأرض المسواة الممتدة، وراءها غابات النخل، ووراء ذلك النهر، يلوح هنا وهناك بين فرجات الشجر.

المنظر، كان محيميد يراه آخر مرّة، وجهه متوتر كأنه يقاوم رغبة جارفة للبكاء.

أَنْظُرُ يميناً، هناك؛ أين غابة الطلح الكثة التي كانوا يلعبون فيها أيّام الطفولة؟ رائحة البرم، زهر الطلح، خصوصاً أيّام الفيضان. وهناك، عند منعطف الدرب، حذاء الجدول الكبير، كانت تشمخ شجرة حراز ضخمة معرشة، تلمع ثمارها الصفراء كأنها حلقان الذهب، ذلك الماء كان له طعم آخر. بلا غطاء، ذلك السبيل، عليه قرعة تتأرجح فوق الماء، تضرب فم الزير يسرة ويمنة، يشرب منه

الغادي والرائح؛ من أقامه؟ لا أحد يذكر، ولكنه لم يعد أحداً يملؤه صباح مساء. طعم الجلد المدبوغ، طعم الماء في القربة المدلاة من الشعب في سقيفة جده.

وطعم ماء النيل أيّام الفيضان، طعم الأخشاب المبتلة، وأوراق الشجر، والطين؛ طعم الموت صافٍ في أماكن الرمل، عكر في محلات الطين؛ عصارة الحياة كلها في ود حامد.

شدد قبضته على المقبض العاجي، مقبض عصا الآبنوس، ومضى بعزم يضعف ويقوى. غريبة تلك العصى، الآن، كأنها امرأة عارية وسط رجال؛ يحس ملمسها ويتذكر مريم، ذلك الصوت، ذلك الشباب، وذلك الحلم.

يخرج من داره كلّ يوم عند الفجر، ويمشي هذا المشوار حتى النهر؛ يسبح ويعود مع الشروق، يحاول أن يوقظ الأشباح النائمة في روحه. أحياناً الحظ يؤاتيه، فيسمع ويرى. الرؤى والأصوات كأنها تنبع من تحت قدميه ومع خبط عصاه على الدرب. هنا كان مكان النورج أيّام الحصاد؛ رائحة التين، رائحة القمح. رائحة روث البقر، رائحة اللبن أوَّل ما يحلب، رائحة النعناع، رائحة الليمون، ومحجوب وعبدالحفيظ والطاهر وسعيد وهو يغمض عينيه؛ يراهم كما كانوا متحركين أبداً، يجرون، يقفزون، يتشعلقون، ينطون من الفرع، يتمرغون في الرمل، يعيشون مثل الماء والهواء. ينقر بعصاه على جذع شجرة. يسمع ضحكة جده. يرى وجهه واضحاً. العينان الصغيرتان الغائرتان. الحنك

الناتئ قليلاً. الجبهة البارزة. الخدان الممصوصان. الفم الصغير. الشفتان الرقيقتان. وجه أسود، ناعم أسود مثل القطيفة، وعينان تزرقان وتخضران وتحمران وتسودان، حسب الظروف والأحوال.

لا يتخيله مفرداً أبداً؛ دائماً يراه في جماعة، على يمينه مختار ود حسب الرسول، وعلى يساره حمد ود حليمة، في وسط الجمع. يتذكره الآن بخليط من الحزن والحقد؛ لقد اختاره دون سائر أبنائه ليكون ظلاً له على الأرض، وخلف له الدار وفروة الصلاة وأبريق النحاس والمسبحة من خشب الصندل، وهذه العصى. ماذا تعكس المرأة الآن.

كان قد اجتاز الدرب الكبير المؤدي إلى السوق. رأى النخلة عند تقاطع الدروب فقصدها بلا تفكير. تهالك عندها وأسند قامته إلى جذعها.

كانا مثل أخوين توأمين، كأنهما اقتسما حصيلة أعمارهما بالتساوي، فلا هو يصغر جده، ولا الجد يكبر حفيده؛ ما كان أعجب ذلك! يتسابقان ويصلان معاً كتفاً بكتف. يشركان للطير معاً، ويصطادان السمك، ويتباريان في تسلق مستعصيات النخل، يتصارعان، يومٌ له ويومٌ عليه. يدخلان حلقة الرقص معاً، فلا يثبت أمامهما راقص أو مصفق، وترقص الفتاة بين الجد وحفيده في دائرة جذب مغناطيسي مدمر؛ تكثف الحلقة ويشتد التصفيق، وتتأرجح الراقصة كأنها مشدودة بخيوط غير مرئيّة، بين قطبي البوصلة، ترمي شعرها المعطر على وجه الماضي مرّة وعلى وجه

المستقبل مرّة. يقتسمان الغنيمة فيما بينهما لا غالب ولا مغلوب، تلمع عيونهما ويزعقان، يطيران في الهواء ويحطان مثل نسرين جارحين؛ ما كان أعجبه منظراً.

لكن الحفيد في ذلك الصباح، ذهب أبعد، ولعل صوت الجد في تلك اللحظة، كما يتخيل محيميد الآن، لم يخل من رنة غيرة، حينئذ أحس نحوه بكراهية مريرة، ولو أن القارب انقلب بهم وغرق، ما مد الحفيد في تلك اللحظة يدا لمساعدته. لقد تقفى أثره خطوة خطوة، وصار مثله، حذو النعل بالنعل، كانت الفكرة تخطر لجده، فإذا هي قد خطرت له في عين اللحظة، ويقول أحدهما الجملة فيكملها الآخر، ويتقاصصان أحلامهما فإذا هي تنبع من مصدر واحد.

كان في نظره أشجع الناس وأكرم الناس، وأذكى الناس وأكثرهم حكمة وهيبة، وكان أبوه أصغر الأبناء، وأكثرهم خيبة أمل لأبيه وأكثرهم تعرضاً لسخريته، وكان الابن الأكبر، عبدالكريم أسطورة قائمة بذاتها قبل أن يظهر الحفيد؛ هو الذي سافر بالجمال محملة بالتمر إلى ديار الكبابيش، وعاد يسوق أمامه قطعان الإبل والضأن، هو الذي جلب البضائع من حدود الريف وبلاد تقلى والفرتيت، هو الذي أضاف أرضاً إلى الأرض، وبيوتاً إلى البيوت، وعمارة إلى العمارة، هو الذي أقام الديوان الكبير، وجاء لأبيه بأبريق النحاس ذي النقوش، ومسبحة الصندل، وعصا الآبنوس، وفروة الصلاة المعمولة من جلود ثلاثة نمور.

كانا في الديوان وقت القيلولة حين جاء بنبأ طلاقه وزواجه؛ قال لعمه نيابة عن جده أنه رجل- باطل؛ كلّ همه الجري وراء النساء. كان دون الخامسة عشرة وعمه في الأربعين. تضاربا والجد مستلق على سريره لا يقول شيئاً، وكاد العم يضرب أباه. بعد ذلك ذهب ولم يعد. وانفضوا كلهم واحداً واحداً. ولما مات الجد لم يحضره أحد من أبنائه، وكان الحفيد قد ذهب أبعد، فوصل بعد فوات الأوان. ما كان أعجب ذلك!

طغت خشخشة الجريد اليابس على الأصوات في خياله فانتبه. أصغى لجريد النخلة في هبوب الريح مثل هيكل عظمي في أكفانه. شاخت الآن، تلك النخلة كما شاخ هو، وقد كانت في شبابها تثمر أبكر وتعطي أكثر، من تمر السكوت العزيز، زرعها بيديه منذ أربعين عاماً، وأطلق اسمها على مريم «القنديل». تسميه مريود ويسميها مريوم.

رف طيف الصبا مثل برق في أفق بعيد، وأحس للحظة عابرة، مذاق الثمر، ونهد مريم يضغط على صدره وهما متماسكان في الماء. كان ثغرها مثل برق يشيل ويحط. ينتظرانها هو ومحجوب خارج الحيّ في الصباح، ومعهم الجلباب والعمة والحذاء، وما تلبث مريم أن تخلع هذا وتكتسي هذا فتتحول من بنت إلى ولد. كانت تتعلم كأنها تتذكر أشياء كانت تعرفها من زمن. ثلاثة أعوام والخدعة لم تنكشف. لم يتركوا حيلة لم يلجؤوا إليها. ثم فارت الطبيعة فورتها، وأخذ جسم مريم يذعن لنداء الحياة الأعمق. وذات يوم استقرت عينا الناظر عليها وهي مدبرة عنه في

حوش المدرسة. اعترفت في الحال كأنها كانت قد سئمت اللعبة. غضب أوَّل الأمر، ثم لاحت له وجوه الطرافة في الموضوع، فأسرع إلى حاج عبدالصمد وعلي ودّ الشايب. وبين يوم وليلة تحولت مريم، تحت سلطان تيارات الطبيعة التي لا تقاوم إلى مخلوق آخر. أصبحت تغض طرفها، وتتريث في مشيها، وتخفض صوتها في الحديث، ولم تعد تسبح معهم في النهر أو تلعب أو تعمل في الحقل. تحولت مريم بين عشية وضحاها بفعل مؤامرة الطبيعة والعرف الاجتماعي، إلى أنثى وحسب. وكذلك حدث انفجار في وجدان محيميد، بدأ وضعه إزاء مريم يتضح ويتحدد، وأدرك أنها هي الامتداد الطبيعي لوجوده وأنها هي التي تعطيه إحساسه بنفسه وبموضعه في نظام الأشياء.

يومذاك بدأ يتراجع عن الدور الذي كان جده يهيئه له، وكان عليه أن يحارب بسلاحه هو، فحارب بسلاح جده، وانهزم، وذهب ولم يعد إلّا بعد أن انتهى كلّ شيء. في تلك العشية حين حمل جثمان مريم في ذراعيه، كان كأنه يعود القهقري إلى نقطة البدء، حين كانت الاحتمالات جميعها قائمة. هل كان الطريفي يدرك، وهو ينوح على حافة القبر، أي ثمن باهظ يدفعه الإنسان حتى تتضح له حقيقة نفسه وحقيقة الأشياء؟ هل يقوى على دفع الثمن؟ هو محيميد قد دفع الثمن وأكثر. كلّ شبر في هذه الأرض التي أحبها ثم تنكر لها، يشهد أنه قد دفع الثمن وأكثر.

هنا، هب واقفاً بعزم، أعضاؤه بعضها يأخذ بتلابيب بعض والألم في قلبه أعظم كثيراً من الألم في مفاصله وظهره وساقيه.

خطا خطوة واحدة، ثم التفت كمن يريد أن يقول كلمة أخيرة. رفع رأسه إلى جريد النخلة اليابس. نعم إنها شاخت كما شاخ، وشعرها سقط كما سقط شعره. نقر جذعها برفق بعصاه كأنه يؤاسيها، وحياها مودعاً بصوت مسموع. لا عجب فهي تعلم سره ونجواه. بعدها ذهب يضرب على الدرب، حاملاً يأسه صوب النهر.

رأى ضوءًا خافتاً على الضفة الأخرى ولم يكن ثمة صوت إلّا تلاثغ الأمواج الصغيرة تتراكض عند قدميه، لا؛ ثمة صوت آخر، ذلك الأزيز الذي يصدر من النهر، أحياناً وهو يسبح، يحس أنه لن يبالي إذا استسلم لذلك النداء، لبث وقتاً وهو يرمي الحجارة فــي الماء كما كان يفعل إذ كان طفلاً، ويلتفت للأصوات الخافتة التي تصدر هنا وهناك مع تباشير الصباح، سمكة تنط وتغطس، أو طائر ينتفض فــي عشه، وفجأة ارتعد جسمه كله؛ كأن الموت قد وضع يده الباردة على كتفيه، كاد يستسلم فــي ذلك الفجر، لم تكن سنه تزيد عن السابعة يوم ألقاه جده فــي ماء النهر يعلمه السباحة، أخذ يضرب بيديه ورجليه فــي الماء على غير هدى والجد على مبعدة منه يناديه بصوت فيه قسوة «اسبح، اسبح». كيف يسبح؟

وأخذ يغطس ويقلع، وكان طعم ماء النهر طعم الهلاك، وصوت الجد كأنه صوت قدر أعمى «اسبح، اسبح».

لا يدري ماذا حدث، ولكنه يذكر لذعة شمس الصباح وهو

يستيقظ على الشاطئ ويذكر ضحك جده، قال له إنه سبح بالفعل دون معونة، ليس صوب الجد ولكن صوب الشاطئ، كأنه تذكر فجأة شيئاً كان قد نسيه، وقال له إنه سبح مثل التمساح العشاري، صدره بارز فوق الماء مقدار ذراع.

بعد ذلك أخذا يسبحان معاً كلّ صباح، وفــي كلّ مرّة يمعنان أكثر تجاه الشاطئ المقابل، كلّ صباح كأنه آخر صباح، وكأن الموت يتربص به على قمة كلّ موجة، لكنه تعلم كيف يستمرئ ذلك الإحساس بالخوف والترقب والمجازفة، ولذة الانتصار على النهر حين تلمس قدماه الأرض فــي الماء الضحل، ثم وهو يتمدد على حجرة القيف ويصطاد شعاع الشمس بين جفنيه.

وذات صباح كاد ينهزم، قال له جده إن الوقت قد حان ليسبحا إلى الدوامة فــي منتصف النهر، ارتعد حين قال جده ذلك، كانت الدوامة التي يسمونها «الكونية» ملتقى تيارات رهيبة، يتجنبها أطول السباحين باعاً. إن الموت ولا شك يسكن فــي تلك البقعة من النهر، مثل حيوان خرافــي مروع، ومع الخوف بدأ يحس لذة الخطر، ثم تماسك على نفسه وقد وطن نفسه على الخوض فــي المخاطرة حتى الموت.

كان جده ينظر إليه وفــي عينيه ذلك البريق، كان وجهه مقنعاً بقناع الموت، فيما بعد، حين كبر، وأصبح أقدر على الفهم، أدرك أن الشعور الذي ربط بينه وبين جده فــي تلك اللحظة، قبيل الشروق، على شاطئ النهر، كان شعوراً بالكراهية مثل

لهب النار، ولكن كما يكره الإنسان نفسه، لم يتكلم، ولكنه قفز فـــي الماء، وقفز جده، وأخذا يسبحان معاً جنبا إلى جنب، يفصل بينهما ذراعان أو ثلاثة، خمسون عاماً أو تزيد، الماضي إزاء المستقبل، كأنهما قدر واحد، كان ذهنه مرهفاً مسيطراً على كلّ عضلة فـــي جسمه، يذكر برودة الماء قريباً من الشاطئ، ويذكر جذع نخلة طاف على يساره، ويذكر غراباً ينعق صوب الشرق، ثم أحس بالماء دافئاً وكأن كلّ خلية فـــي جسمه تسمع وترى، وبدأ حس الدوامة يعلو والنداء يشتد، فـــي برهة لمح وجه مريم وسمع صوتها ينادى «يا مريود، يا مريود»، وأخذ الصوتان يتجاذبانه، وأخذ صوت الدوامة الكونية يعلو حتى طغى على الأصوات كلها. لا يذكر أين كان جده حينئذٍ، انقطع الحبل الذي كان يربط ما بينهما، أصبح وحده إزاء قدر يخصه هو، ثم حملته موجة إلى مركز الفوضى، كأن ألف برق برق، وألف رعد رعد، ثم ساد صمت ليس كالصمت، أحس كأنه يجلس فوق عرش الفوضى مثل شعاع باهر مدمر، كأنه إله، وكان يريد أن يقتل ويدمر ويشعل حريقاً فـــي الكون كله، ويقف وسط النار ويرقص ويتراقص اللهب حوله، لم يعد مسيطراً على قوى جسمه وحسب، ولا على قوى النهر وحسب، بل على كلّ احتمالات المستقبل، الخوف جاء بعد ذلك، فتح عينيه كمن يخرج من كابوس، ورأى أوَّل ما رأى طيف مريم يرف فوقه، نظر فإذا هو قد سبح الشوط كله، عبر الدوامة، إلى الشاطئ الآخر، ورأى جده يقفل عائداً حيث أتى، يا الله، إنه فعل المستحيل، بذّ جده، سبح المسافة كلها من الجنوب إلى الشمال، نظر إلى جلد النهر

يقشعر وسمع الصوت المرعب، وأخذ ينتفض خوفاً كما يخاف الناس العاديون، من الجوع والوحدة والموت، جاء جده بقارب وعاد به إلى الشاطئ الجنوبي، كان يجدف ويتكلم ويضحك طول الطريق، سيحكي القصة لحمد ود حليمة ومختار ود حسب الرسول، وسيقول بزهو كما يقول كلّ مرّة، محيميد صورة طبق الأصل مني، الخالق الناطق، لكن الحفيد فــي ذلك الصباح ذهب ولم يعد، لم يفطر مع جده كما كانت عادتهم كلّ صباح بعد السباحة، لم يذهب وقت القيلولة ليقرأ له حتى ينام، لم يتعش ويسمر معه كما كان يفعل كلّ ليلة، ولم يباكره فــي الصباح ليشرب معه الشاي ويحكي له أنباء الأعراس التي ارتادها بالليل مع أصدقائه محجوب والطاهر وعبد الحفيظ وسعيد، والمغامرات والمعابثات والحماقات، وفــي اليوم الرابع كان حقده على جده أنه رماه فــي وجه الموت قد خف، ولما سمع صوت جده يناديه، امتلأ قلبه بالفرح، وهش وقال نعم، ولعل كلّ شيء كان سيظل كما هو، لولا أنه أحب مريم، وجده قال لا.

فجأة سمع صوت حداء يطفو على وجه الماء، وينتشر بين الضفتين، صوتاً قوياً ممتلئاً كأنه صوت الشباب، قانعاً بقسمته، والتفت فإذا قرن الشمس قد ذر، وإذا بقارب يشق عباب الماء بعزم كأنما خرج من منبع الشروق، وكأن الغناء العذب يعقد بين عناصر الطبيعة على عدوتي النهر بخيوط من حرير.


Salahi 77

(2)

قال الطاهر ود الرواسي وهم على ظهور حميرهم ضُحًى، فـــي طريقهم إلى سوق الخميس:

«يومذاك أنت سألتني سؤال وأنا رديت عليه، لكن انت قطع شك ما سمعت الجواب».

أي سؤال؟ وأي جواب؟ ولكن سعيد القانوني كان أسبق، قال من على ظهر حماره «الخندقاوي»[1] الملقب «ثاني دور» كأنه يتحدث من منصة:

«محيميد مما رجع لي ود حامد وهو يسأل وينشد؛ تقول عاوز يولف تواريخ».

(1) الحمار الخندقاوي، أي الجيد المجلوب من بلدة الخندق (شمال السودان)..

ضحك سعيد عشا البايتات القوي[1]، وضحك أحمد أبوالبنات.

كان عشا البايتات فــي طرف الركب، كأنه على ميسرة جيش غازي، بحماره «الكورتاوي»[2] الأسود ذي الغرة؟ على جبينه لجامه يشلشل[3]، والفروة طويلة ذات عبل تكاد تمس الأرض، وهو – بساقيه القصيرتين وعمامته الكبيرة وشاربه المبروم، كأنه أوزة تجلس على سنام جمل، قال:

«أنا اديت محيميد كلام يوزنوه بي موازين الذهب والفضة، اوعى تنساه وقت تجى للكتابة».

قال أحمد بمرح: «انت وين لقيت الكلام يا سجم الرماد؟ كلامك كله خارم بارم»[4].

كان رد سعيد عشا البايتات أنه ضرب الحمارة على عجزها بعصاه الخيزران، لم تكترث ولم تغير سرعتها بل نفضت رأسها فــي الهواء بصلف، نظر إليها عشا البايتات بإعجاب، نظرة متفحصة نافذة، وقال:

«دحين يا أبوالبنات؛ الحمارة، دي موبت الحمارة العديلة

(1) عشا البايتات القوى، حرفياً: الشهم الذي يطعم البائتات على الطوى (الجائعات) ومعناها الفتى الفارس حامي العشيرة..

(2) الحمار الكورتاوي: منسوبة إلى بلدة كورتي (شمال السودان) وهي أيضاً سلالات مشهورة..

(3) لجامه يحدث جلبة..

(4) وأين لمثلك حسن الحديث يا قليل الفائدة، كلامك كله خلط لا معنى له..

ديك الجابها جدك من بحري؟»[1].

وقال الطاهر ود الرواسي:

«المحسية حبوبتها، دي بت بتها، انت الوقت دا كله عميان ولا شنو يا مرمد؟»[2].

وقال سعيد القانوني:

«عشا البايتات معذور، مه مشغول بي أمور السياسات العليا» دحين هو فاضي كمان عشان يؤكد الحمارة أمها منو وحبوبتها منو[3]؟ والله يا الطاهر أنت ماليك حق، دا راجل بقى فــي زمرة الحكام أجاويد البلد.

وقال الطاهر:

«صدقت والله، دا زول من الكبارات، نحن الليلة اتشرفنا خلاص وقت جنابك زاملتنا للسوق، بعد شوية تشوفوا يا جماعة، أوَّل نصل عند الجميز، يقابلنا الحرس، كركون سلاح، يضربوا لنا تعظيم، عشان جلات عشا البايتات»[4].

(1) (ذا الحين) يا أبوالبنات أليست هذه الحمارة هي بنت الحمارة الممتازة تلك التي أحضرها جدك من الشمال؟

(2) الحمارة المحسية (المجلوبة من بلاد المحس) جدتها، هذه بنت ابنتها هل كانت أعمى كلّ هذا الوقت أم ماذا يا قليل الحيلة؟

(3) عشا البايتات معذور، فكره مشغول بأمور السياسات العليا وهل تحسبه يتفرغ بعد ذلك أيضاً ليتأكد من هي أم الحمارة ومن هي جدتها؟

(4) بمجرد أن نصل إلى شجرة الجميز سيقابلنا الحراس شاكين السلاح يصطفون تعظيماً لنا من أجل جلالة عشا البايتات..

وقال أحمد:

«صح أنت ليه ما تشتري لك عربيّة «جب» زي الرجال؟ القروش الكثيرة دي داير تخليها لي منو؟».

وقال سعيد القانوني:

«عربيات الجب إن شاء الله تطير فــي السماء، أولاد بكري من يوم ما جابوا عربيتهم مسخوا علينا دخول السوق، كلّ دقيقة وثانية توت توت، عملوا لنا صداع».

هذا الكلام لم يغضب عشا البايتات؛ قال، وهو يضحك ضحكته العذبة، وقد أمال عمامته قليلاً إلى الأمام، فــي زاوية تقول إن سعيد عشا البايتات لا يبالي بأحد.

كانت حوافر الحمير تقعقع فــي الحصى، محدثة نغماً نشطاً متحفزاً، يتزعمها حمار سعيد فــي أقصى اليسار، تليه حمارة ود الرواسي التي تسير بلا جهد، مثل شخص واثق من مقدرته، ثم حمار سعيد القانوني وحمارة محيميد فــي الوسط، وفــي الميمنة حمارة أحمد أبوالبنات، وعلى مبعدة منهم حمار عبدالحفيظ، يسير كأنما وحده، يسرع ويبطئ، كان عبدالحفيظ، صامتاً، يحرك حبات مسبحته، وقد ترك عنان الحمار على حافة السرج، وتركه يمشي على هواه.

قال سعيد عشا البايتات:

«المال كثير أحمد الله، وعربيّة الجب إن كنت عاوزها ماها مشكلة، لكن على اليمين الإنسان مهما كان، إذا ما شد للسوق فوق حمار عديل زي ده، وخت فوقه السرج السناري والفروة المرعز، وربط البطان وشكا له اللجام، واتحكر قعد، والحمار يمشي رب رب، زي كأنه سردار ولا حكمدار، والحمار ينهق هاها فوق الحلال... عليك أمان الله الراجل إن ما سوى جنس دا ما يقولوا عليه راجل أخو البنات»[1].

قال الطاهر:

«عشا السجم أتاريه عنده فهم»[2].

وقال أحمد:

«وين يلقى الفهم؟ حتى إن بقى اشتري له بابور بحر ياهو سجمه ورماده»[3].

تجاهل عشا البايتات كلّ هذا، ونظر إلى الحمارة وقال بإعجاب:

---

(1) المال كثير بحمد الله، وسيارة «الجيب» إذا أردتها ليست هنالك مشكلة هي اقتنائها، لكنني أقسم يمين أن الإنسان مهما كان مركزه إذا لم يركب إلى السوق حماراً جيداً مثل هذا ويضع فوقه السرج السناري (المتين المجلوب من بلدة سنار) وعليه فروة «المرعز» ذات الوبر الغزير ويربط حزام البطن ويلجمه ويجلس مرتاحاً والحمار يمشي يسمع وقع حوافره على الأرض كما لو كان سرداراً أو حكمداراً والحمار ينهق وهو يسير متمخترا بين الأحياء «الحلال» أقسم لك أن الرجل الذي لا يفعل مثل ذلك لن يقال عليه أنه رجل شهم حقاً..

(2) عشا البايتات قليل الفائدة يبدو أنه يحسن التفكير!

(3) أين يجد الفكر؟ حتى إذا اشترى له باخرة «سفينة» سيظل فـي خلطه وقلة فهمه..

«الحمارة دي طفيانة بالحيل[1]، الداهية تقول أريل الخلا».

تعثرت الحمارة وكادت تقع، وقال أحمد مذعوراً، بين الجد والضحك: «الله لا أداك حسنة[2]، عارفك عينك حارة زي نار جهنم، سحرت البهيمة».

قال عشا البايتات:

«إذا عاوز تبيعها هسع[3] أشتريها منك».

قال سعيد القانوني:

«انت حمارك الراكبة دي شن هيبه؟ إذا كان القروش غلبتك ما تشوف لك مرّة تعرسها»[4].

قال ود الرواسي:

«عشا البايتات بعد دا ما ليه عرس، أحسن له يمشي يحج»[5].

وقال أحمد:

«ويبقى اسمه شنو؟ حاج عشا البايتات؟».

---

(1) هذه الحمارة مدلهة بنفسها كثيراً كما لو كانت أريل الخلاء (غزال)..

(2) لا أعطاك الله حسنة..

(3) هسع: ها الساعة..

(4) الحمار الذي تركبه الآن ما عيبه، إذا حيرتك كثرة أموالك فمن الخير لك أن تبحث عن امرأة تتزوجها

(5) لقد كبر عشا البايتات على الزواج ومن الخير له أن يذهب إلى الحج..

قال الطاهر:

«عشا البايتات شنو كمان مع الحج؟ يبقى اسمه حاج سعيد»[1].

ضحك سعيد عشا البايتات القوي ضحكة طويلة، تخفي تحتها كلاماً كثيراً، ومن عجب أن عبدالحفيظ أيضاً خرج عن عزلته وصمته، فضحك ضحكة قصيرة ضحلة، جعلت محيميد يدرك بغتة كمن يتذكر، أن عبدالحفيظ موجود معهم، بعد ذلك انقطع حبل الحديث، لأن شيئاً ما في انعكاس الضوء على سطح ماء النهر، جعل محيميد يلتفت إلى الوراء، أدار عنان حمارته واستقبل مشرق الشمس، بانت له من ذلك البعد كأنها على هضبة، بلا أوَّل ولا آخر، مكشوفة، كإنسان ينام في العراء بلا غطاء، الضفة الشمالية صفراء تتوهج تحت شمس الضحى، ثم النهر، يختفي ويبين، كالسراب كالبرق، أشجار السنط والطلح تتشبث بالماء، تليها حقول القمح، وحين يستقر النظر على غابات النخل في الوسط، تفجؤه فورة الحياة فيها، حقول أخرى تمتد حتى أسفل البيوت، بعدها رمال وصحراء، لا تنتهي، بانت له معلقة في فراغ، تدنو فإذا هي على مد الذراع، ثم تعدو مبتعدة عنه كأنها حلم عسير المنال.

هنالك في وضح النهار سمع أصواتهم، ورآهم مرأى العيان،

(1) «وماذا يصبح بعد ذلك؟ حاج عشا البايتات؟»
قال الطاهر:
«عشا البايتات ماذا مع الحج سيصبح اسمه حاج سعيد».

تنادوا به من ناحية النهر والصحراء، من الشرق والغرب، رآهم يخرجون من الماء، ويتسللون بين فروع الشجر، ويقفزون فوق هامات النخل، ورءوس البيوت، وينطون كأنهم يرقصون فوق القباب ويذوبون فـــي شعاع الشمس.

الوقت ليس هذا ولا ذاك، ولكن الشروق كالمغيب، يصيران، ويتكرران فـــي كلّ ومضة عين، نظر بلا فزع ولا دهشة، ثم بوعي تام جذب عنان حمارته وأدار ظهره للشمس.



(3)

مال الطاهر ود الرواسي نحوي دون أن يحول وجهه عن النهر، ولكن سؤالي ظل معلقاً فــي الهواء بين النهر والسماء، كان وجهه واضح المعالم يلمع وسط ذلك الظلام، كأن الضوء ينبع فــي داخله.

فجأة صرخ:

- بنت الكلب، الليلة وقعت معاي.

قلت له:

- كيف عرفت أنها أنثى.

قال:

- حتى فــي الحوت، المره مره، والراجل راجل[1].

كنت أعمى فــي تلك العتمة، ولكن الطاهر ود الرواسي كان يسمع ويرى، قال:

- أصلها عندها تار معاي، قبل خمسين سنة واحدة من حبوباتها قلبت بي المركب، وقت وقعت فــي المويه بقت تجرني من سروالي لي تحت.

- وانت شن سويت؟[2].

- خليت لها السروال ومرقت من المويه عريان جل[3].

صوته فــي تلك الدجنة مفعم بالحياة والمرح كأن السمكة فــي الماء تتحدث إليه بلغة يفهمها:

- أكثر من ثلاثة شهور وأنا وراها، مرّة تقطع الخيط ومرّة تاكل الطعم وتشرد، بنت الحرام تقول جنية من جنس العفاريت.

كنت أصادفه فــي رحلاتي عند الفجر، أحياناً فــي قاربه فــي عرض النهر، وأحياناً فــي حقله، وأحياناً على الشاطئ جالسا يرقب سنارته، وكنت قد نسيت عذوبة صوته، إلى أن سمعته يغني ذلك الصباح غناء كأنه غلالة من الحرير انتشرت

(1) حتى بين الأسماك المرأة امرأة والرجل رجل..

(2) وأنت ماذا فعلت؟

(3) تركت لها السروال وخرجت من الماء عريان تماماً..

بين الضفتين، ومرّة لمحته من بعد ساهما يحدق فـي الماء، ناديته فلم يجب، وبعد زمن أمام دكان سعيد سألته، ضحك وقال:

– انت شفتني يومداك؟ حكاية عجيبة والله، تقول صحيح الواحد وقت يكبر يصيبه الوسواس، عليك أمان الله خمسين سنة ما شفت شي، خمسين سنة وأنا أصيد فـي النيل لا شفت شيء ولا سمعت شيء، داك الصباح بت الحرام قطعت الجبادة وغطست، شويتين شبت فوق وش المويه، عليك أمان الله بت فتاة زول بني آدم... أني آمنت بالله، وسمع أداني دي قالت بي حسا واضح زي كلامي وكلامك[1].

«يا ود الرواسي أخير لك تبعد مني».

وقبل ما القى الكلام ال أرد به عليها غطست تاني جب فـي المويه، أنا أخوك يا محجوب، أنا أخو الرجال، قعدت متمحن أعاين للمويه[2].

لو أن سعيد عشا البايتات قال لنا هذا الكلام لضحكنا وقلنا كلام خارم بارم، ولو حدثنا به أحمد أبوالبنات لقلنا حديث سكر، ولكن الطاهر ود الرواسي طول حياته لم يقل إلّا كما رأى وسمع.

(1) ذلك الصباح ابنة الحرام قطعت السنارة وغطست فـي الماء، بعد قليل شبت فوق وجه الماء واستوت إنساناً، فتاة كأي فتاة أخرى، آمنت بالله، ولقد سمعتها بأذني عندما قالت لي بصوت واضح مثل كلامي وكلامك!

(2) وقبل أن أجد ما أرد به عليها غطست فـي الماء مرّة أخرى وجلست محتاراً أنظر إلى صفحة الماء..

قال الآن، وكأنه سمع السؤال لأوَّل مرّة:

– عبدالحفيظ المسكين من يوم بته ماتت أتغير، بقى شكل تاني، زمان كان صاحي وعيونه مفتحه، دحين الله أعلم، إذا كان لقى اليقين فــي الصلاة برضه زين[1].

– وانت؟

– أنا؟ فاطمة بنت جبر الدار طول حياتها تصلي، صلاتها تكفينا نحن الاثنين.

يوماً ما سوف أسأله عن قصة زواجه من فاطمة بنت جبر الدار، إحدى أخوات محجوب الأربع، لن يجيبني الآن، فهو مشغول بالسمكة فــي الماء، يتحدث إليها ويمازحها، وقد نسي تماما وجودي جنبه، قال لها إنه صاد جدتها منذ أربعين عاماً، وصاد عمها منذ ثلاثين عاماً، وصاد عدداً من خالاتها وعماتها، سألت عن أبويها وأختها، قال كمن يصحو من نوم:

– اه؛ من؟ شنو؟

– الحكاية؟ أنت تهت ولا شنو؟

– محيميد! إني آمنت بالله، صوتك جاني من بعيد خلاص.

– أمها وأبوها.

(1) عبدالحفيظ المسكين تغير منذ أن ماتت ابنته أصبح شيئاً آخر، من قبل كان واعياً والآن الله أعلم، وإذا كان قد وجد الطمأنينة واليقين فــي صلاته فهذا خير..

– أم منو وأبو منو؟

– السمكة

– آه، بنية العفاريت، أمها ساكنة وسط البحر هناك جوه، أبداً ما بتطلع، بس مرّة مرّة تشوف حركة الموج فوقها.

– وأبوها؟

– أبوها أظنه عرس له وحدة تانية.

والإخوان؟

– الإخوان والأخوات السافر قبلي والسافر بحري، أختا ليها قلبت كم مركب.

قلت له بدهشة:

– وهي المقعدها شنو؟[1].

– العلم عند الله، يمكن منتظرة أجلها.. منتظرة تاخد تارها مني.. لكين بت الحرام أظن أجلها تم الليلة!

الضوء فـــي الشرق على يميننا كأنه ينتظر إشارة من أحد، وكأن النهر يصرخ صراخه الأبدي المكتوم فـــي أذن الشاطئ، الشاطئ لا يفهم، والنهر لا يستطيع إلّا أن يتكلم.

(1) وهي ما الذي يبقيها؟

فــي ذلك الغروب كنا نحن الأربعة نصارع النهر لنصل إلى محجوب، فجأة مادت الأرض تحت أقدامنا وفــي لحظة بعثرنا الموج ذات اليسار وذات اليمين، أخذ محجوب يغطس ويقلع، ونحن الأربعة، عبدالحفيظ وحمد ود الريس وسعيد، وأنا نحيط به فــي دائرة نحاول أن نجد ثغرة فــي الموج لنصل إليه، فجأة لمحت الطاهر ود الرواسي يقفز من الشاطئ، وخيل لي أنه لم يكن يسبح فــي الماء، بل كان يطفو على أشعة الشمس الغاربة.

انتشل محجوب من الماء ورفعه بيد واحدة، حين أفقنا كان الظلام قد استتب له الأمر، محجوب انتبه دفعة واحدة وأخذ ينادي فــي الظلام ويلعن النهر ويندب صديقه، ولكن الطاهر ود الرواسي ما لبث أن هل لينا من ناحية اليسار، سمعناه يضحك فــي الظلام، أخذ محجوب يلعن ود الرواسي كما كان يلعن النهر، ثم ضحكنا كلنا على محجوب وعلى أنفسنا وعلى لا شيء.

ضحك ود الرواسى وحده وقال:

– محجوب فارس بر، وفــي البحر لا حول له ولا قوة.

ابتسمت بحزن؛ فقد طافت الذكرى بنا معاً فــي آن واحد وكأن تلك الضحكة ظلت حبيسة فــي صدر ود الرواسي كلّ تلك الأعوام، كبقايا ثروة ضاعت، حتى أثارها وجودي إلى جانبه ذلك الفجر.

قلت له، أحثه على التذكر، ذات المكان على ذات الشاطئ، رجلان شيخان يرقبان شروقاً كأنه المغيب:

- أما أنت يا ود الرواسي ففارس بر وفارس بحر.

لكن صمته طال حتى يئست منه، وشغلتني الأصوات المبهمة التي تنبع من النهر، كأنني أسمعها من مسافة ألف ميل، فيها أصداء الأودية الجبلية البعيدة والشلالات، وأذعنت زمناً للغط الموجات الصغيرة وهي تعدو بلا كلل من شاطئ إلى شاطئ، ومن آن لآن كان النهر، هنالك فـي القلب، عند ملتقى التيارات، يعوي عواءه القديم، وبينما أنا كذلك، إذا بصوت إنسان إلى يميني، كأنه يخاطب النهر والفجر الذي قرب يطلع:

- الإنسان يا محيميد... الحياة يا محيميد ما فيها غير حاجتين اتنين.. الصداقة والمحبة، أما تقول لي، لا حسب ولا نسب ولا مال... ابن آدم إذا كان ترك الدنيا وعنده ثقة إنسان واحد، يكون كسبان، وأنا المولى عز وجل أكرمني بالحيل؛ أنعم علي بدل النعمة نعمتين.. إداني صداقة محجوب وحب فاطمة بت جبر الدار.

أحسست بحزن؛ فقد كنت طول حياتي، أعتبر صداقته شرفاً عظيماً لي، لذلك قلت له برفق:

- وعبدالحفيظ... وسعيد... و...

قال:

– عبدالحفيظ أخوى وسعيد أخوي.. لكن الإنسان.. الأخ.. الصديق.. الراجل اليوزن ألف راجل.. الكلام على القلوب، جوه جوه، الحكاية مو الطاهر ود الرواسي... الحكاية الجد حكاية الطاهر ود بلال.. ولد حواء.. العبد.

قال هذا ببساطة، دون أية مرارة، ثم أضاف:

– أنت كنت بعيد.. تسافر، تغيب حول وتجي تقعد معانا شهر أو شهرين، من بدري، من أيّام المدرسة وبعدين شغل الحكومة، الزول المعاك ما هو مثل الزول البعيد منك، مهما كان[1].

ثم قال:

– كذابة المره اللي تقول ولدت مثل محجوب وجبر الدار[2].

صمت بطريقة طبيعية، كأنه يريد أن يترك هذه الجملة وديعة فـي ضمير الفجر، ويريد أن يتأكد أن النهر أيضاً قد أصغى وفهم.

وبعد ذلك تشاغل بخيط السنارة، يشده ويرخيه، ثم أرسله وأهمله كأن السمكة فـي الماء لم تعد تهمه، ثم ضحك، فالتفت نحوه، فإذا وجهه الداكن كقطعة الفحم الحجري، يلمع كأن عليه وهجاً من أضواء النجوم البعيدة.

(1) الشخص معك ليس مثل الشخص البعيد منك مهما كانت صلته بك!

(2) تكذب المرأة التي تقول إنها ولدت مثل محجوب..

ذلك الفجر، ضحك أكثر وقال:

– عبدالحفيظ خل حكايته، قبل سألتني عن عبدالحفيظ لكين الحكاية ال انت عاوز تسمعها أنا عارفها، يا زول! اشمعنى السنين دي كلها ما سألتني عنها؟ بس ما كنت قلت لك، عمري ما قعدت مع جنس إنسان وقلت له حصل كيت وكيت، الحكاية ما ها مجهولة، فــي شيء الناس عارفنه، والمو عارفنه راح بي وقته.

لكين هسع... قالوا الكبر يطلق اللسان والحياة شن فضل فيها غير الونسة؟[1].

كمان أقول لك حاجة... الزمن دا كله وأنا صارى الحكاية فــي قلبي عاوز أحكيها لي إنسان... مو محجوب.. محجوب عارفها وعارف أكتر منها.. لا! إنسان تاني عنده الرحمة وعنده الفهم، عارف شيء وغابي منه شيء.. إنسان مثلك يا محيميد.. وكمان.. انت عندك طبيعة.. تخلي الواحد يقول لك الكلام ال أصله ما قاله لي جنس إنسان.

هبت من الشرق هبوب.. صغيرة دافئة أحدثت جلبة فــي الماء وبين أغصان الشجر لم تلبث طويلاً حتى هدأت.

قال ود الرواسي:

(1) ماذا بقى فــي الحياة غير المؤانسة..

– أصله الزمن دا بقى زمن كلام، إذاعات وسنمات وجرانين ومدارس واتحادات وهوسة، يومها أسمع الإذاعة تلعلع، العمال، الفلاحين، الاشتراكية، العدالة الاجتماعية، زيادة الإنتاج، حماية مكاسب الثورة، الانتهازية، الرجعية،... أى يا خوانا مصيبة شنو الوقعت علينا دي؟ إذاعة السجم دي تنبح طول اليوم أصله حسها دا ما بيفتر[1]؟ قلت لي حاج سعيد، «انت يا حاج! العمال والفلاحين ديل بلدهم وين؟» قال لي: «يا مغفل العمال والفلاحين مو ياهن نحن»، «أنا أخوك، هسع نحن أسمنا العمال والفلاحين؟» قال لي: «أيوه»، «أها وزيادة الإنتاج يعني شنو؟» قال لي: «الإنتاج مو يا هو السجم البنسوي فيه دا، وزيادة الإنتاج يعني تخت السجم فوق الرماد»، بعدين حاج سعيد ضحك وقال لي: «انت ما تمشي تسأل الطريفــي ولد بكري يفسر لك الكلام دا كله، ماك شايفه كلّ يوم جامع ناس سعيد عشا البايتات يديهم فــي الدروس والمحاضرات؟»[2].

صمت برهة ثم قال:

– يمكن الحاصل دا زين العارف منو؟ ومادام جنس ونستنا دي بقوا يمثلوها فــي الإذاعات ويسووها فــي الأفلام ويكتبوها فــي الكتب أها دحين أتعدل سمح وسجل يا محيميد، العارف

(1) هذه الإذاعة التافهة ألّا يبح صوتها، وهي تنبح طول اليوم؟

(2) أذهب إلى الطريفــي ولد بكري يفسر لك هذا الكلام، ألا تراه كلّ يوم يجمع عشا البايتات وآخرين ويلقي عليهم المحاضرات؟

منو؟ يمكن تبقى عبرة لمن اعتبر[1].

وكذلك مضى الطاهر ود الرواسي ينسج من خيوط الفجر الزاحف نحونا نسيج قصة حياته.

كان صوته ينخفض ويعلو، وأحياناً تهب الريح قوية فتغرق كلماته، وكان يخيل لي أحياناً أن عناصر الطبيعة كلها تصمت وترهف السمع لما يقول.

ألهاني حديثه عن مراقبة الفجر ولم أنتبه حتى كان ضوء الشروق قد لامس قمم النخل والشجر وسرى على صفحة الماء.

قال ود الرواسي:

- الحمد لله، الحمد لله.

ثم قال:

- يا زول، الليلة اتونسنا ونسه كثيرة خلاص لكين الكلام ودر علينا ملاح الغدا[2]، السمكة بنت الحرام شافت انشغالنا بالحديث أكلت الطعم وشردت.

ثم صاح موجهاً كلامه إلى أم السمكة الموهومة فـي عرض

(1) ربما كان هناك خير فـي الذي يحدث الآن، من يدري ومادام مثل كلامنا هذا أصبح يمثل فـي الإذاعات والأفلام ويكتب فـي الكتب، فاعتدل فـي جلستك يا محيميد وسجل حديثي هذا، من يدري قد يصبح عبرة لمن اعتبر..

(2) يا صديقي، لقد تحدثنا كثيراً ولكن الحديث أضاع علينا طعام الغداء.

النيل:

– يا وليه هوي، قولي لي بتك أحسن تبعد مني، المرّة الجاية عليَّ اليمين إن طارت وإن قعدت ما تفلت من أيدي.

بعد ذلك قهقه بالضحك وهب واقفاً وقال لي:

– يا خوي قوماك نسدر، بنت جبر الدار تكون حضرت شاي الصباح.

وكذلك صعدنا تجاه البيوت، أنا أتوكأ على عصاي، عصا الأبنوس، وهو يخطو أمامي خطواته القوية النشطة وبدأ يغني شعراً كنت قد سمعته منه فـــي زمان غير هذا الزمان ومكان غير هذا المكان.



(4)

كان اسمه حسن، وسماه الناس «بلال» لأن صوته في الأذان كان جميلاً وفيه لكنة، ينادي «أسهد ألّا إله إلّا الله، أسهد أن مهمداً رسول الله، حي إلى الصلاة، حي إلى الفلاح».

قال إن الشيخ نصر الله ود حبيب هو الذي أعطاه الاسم لما سمع من حلاوة صوته، وعلمه الأذان وجعله مؤذناً.

وكان يقول له: «طوبى لمن شهد صلاة الفجر في المسجد على صوتك يا بلال فوالله إن صوتك ليس من هذه الدنيا لكنه نزل من السماء».

يحكي الذين رأوه أنه جميل الوجه، حسن الصورة متناسق الأعضاء، ليس بالطويل ولا بالقصير لونه يتوهج كلون المسك، لا تستطيع أن تطيل فيه النظر لجمال صورته كان كثير السكينة، وقور السمت، نبيل الملامح والحركة، كأنه من سلالة ملوك

قدماء، إذا وقف كأنما تقف معه حاشية غير مرئية، وإذا جلس، جلس القرفصاء، ويسكن حتى كأنه يذوب فيما حوله، وحدثوا أنه كان يمشي منصباً على الأرض بكامل جسمه، قليل الكلام لكنه إذا قام أو قعد يظل يطرق إلى الأرض، ولسانه لا يني عن ذكر الله والصلاة على نبيه.

وكان الشيخ نصر الله ود حبيب، وهو على قدره وعظم شأنه، يقوم له إذا دخل، ويقسم عليه أن يجلس إلى جانبه، ويقدمه إذا خرج.

قالوا إن هذا الاحترام من ذلك الشيخ الجليل كان يبكى بلال فيقول للشيخ:

– يا مولاي هذا لا يجوز من مثلك على مثلي، أنا عبدك وأنت سيدي فــي شأن الله.

فيقول له الشيخ:

– يا بلال، أنت عبدالله، نحن إخوة فــي شأن الله، أنا وأنت مثل ذرات الغبار فــي ملكوت الله عز وجل، ويوم لا يجزي والد عن ولد، يمكن أنت كفتك ترجح كفتي فــي ميزان الحق جل جلاله، كفتي أنا أرجح من كفتك فــي موازين أهل الدنيا، ولكن كفتك يا بلال سوف ترجح كفتي فــي ميزان العدل، أنا أجري جري الإبل العطاش يا بلال لكي أحظى بقطرة من كأس الحضرة، وأنت شربت إلى أن ارتويت يا بلال، أنت سمعت

ورأيت، أنت عبرت وعديت، ولما فاداك الصوت قلت نعم، قلت نعم، قلت نعم.

يبكي الشيخ حتى تبتل لحيته، ويقول بلال باكياً:

- لا يا سيدي لا يا سيدي «أنت شيخي وقطبي ومولاي وسيدي، وأنا عبدك ومملوكك فــي شأن الله».

يروي الذين حضروا زمانه، أنه كان حين يؤذن لصلاة الفجر، تحس أن الصوت لا يصل إليك من مئذنة الجامع، ولكنه ينبع من قلبك.

كان أمراً عجباً، فيما حدثوا، أن يؤذن بلال ها الله ها الله، ويؤم الناس بالصلاة الشيخ نصر الله ود حبيب، كان الجامع يمتلئ كلّ صباح بالمصلين، وكل صباح يحضر الصلاة فوج من المصلين غرباء، لم يرهم الناس من قبل، كانت أبواب السماء مفتوحة فــي ذلك الزمان كما قالوا ولما ماتا انحسرت ظلال الرحمة، وأغلقت أبواب الملكوت إلى يومنا هذا.

يقول الطاهر ود الرواسي إن الاسم الوحيد الذي ورثه عن أبيه كان لقباً لم يناده به أحد إلّا الكاشف ود رحمة الله.

كان ود رحمة الله يقول:

إن بلال رواسي.

ويسألونه..

رواسي ماذا؟

فيجيب

- بلال رواسي مراكب القدرة.

ويقسم أنه رآه عدة مرات بين العشاء والفجر وهو قائم وحده في مركب ينقل قوماً غريبي الهيئة إلى الشاطئ الآخر.

ويقول الطاهر إن أباه حين مات أخذ أسماءه جميعاً معه، كأنه كان بالفعل روحاً مفرداً ليس من أرواح هذا الزمان ولا هذه الأرض.

قالوا إنه مكث حولاً واحداً فقط بعد وفاة الشيخ نصرالله ود حبيب، وأنه توفـي مثله فـي نفس الساعة من نفس اليوم من أيّام شهر رجب.

كان قد امتنع عن الأذان ودخول الجامع بعد وفاة شيخه واحتجب، وذات فجر استيقظ الناس على صوته ينادي من على مئذنة الجامع، صوتاً وصفه الذين سمعوه بأنه كان كأنه مجموعة أصوات يأتي من أماكن شتى ومن عصور غابرة، وأن ود حامد ارتعشت لرحابة الصوت وأخذت تكبر وتكثر وتعلو وتتسع، فكأنها مدينة أخرى فـي زمان آخر، قام كلّ واحد منهم من فراشه وتوضأ وسعى إلى منبع الصوت، كأن النداء عناه وحده فـي ذلك الفجر.

ولما وقفوا للصلاة رأوا «بلال» يلبس كفناً وكان الجامع غاصاً بخلق كثير، من أهل البلد ومن غير أهل البلد، كان أمراً عجيباً كبر للصلاة كما كان يفعل أيّام ود حبيب، ثم وقف ليصلي بهم، فلم يقف أمامهم حيث كان يقف الشيخ بل وقف معهم في وسط الصف الأوَّل وهو على تلك الهيئة، قرأ سورة الضحى بصوت فرح فإذا بالآيات نضرة كأنها عناقيد كرم.

وبعد الصلاة التفت إليهم بوجه متوهج سعيد وحياهم مودعاً وطلب منهم ألّا يحملوه على نعش على أكتافهم وأن يدفنوه بجوار شيخه نصرالله ود حبيب، على أن يتركوا بينه وبين الشيخ مسافة تقتضيها أصول الاحترام والتبجيل. بعد ذلك تمدَّد على الأرض عند المحراب وتشهد واستغفر، والناس ينظرون في رهبة ودهشة ثم رفع يده كأنه يصافح أحداً وأسلم روحه إلى بارئها، وحملوه من موضعه ذاك من الجامع إلى المقبرة وقالوا إنه مشى في جنازته خلق كأن الأرض انشقت عنهم، ودفنوه عند الشروق فيما رووا وأم بهم الصلاة رجل مهيب لم ير وجهه أحد ولكن أكثرهم قال إنه كان كأنه الشيخ نصرالله ود حبيب، وحدثوا أنه ما من رجل شهد وفاة بلال إلّا وقد اشتهى أن تقبض روحه في تلك الساعة، فقد جعل مذاق الموت في أفواههم كمذاق العسل.

قال الطاهر ود الرواسي إن أباه نشأ عبداً هملاً بلا سيد، كُلُّ الرقيق كان لهم سادة إلّا بلال، ويقال إنه ربما يكون من ذرية رقيق كان لملك حكم ذلك الإقليم في الزمن القديم يدعى «بندر

شاه» وبندر شاه هذا تضاربت فيه الأقاويل.

يزعم بعض رواة الأخبار فـــي ود حامد أنه كان ملكاً نصرانياً من ملوك النوبة بسط سلطانه قبلي إلى غاية ديار المناصير، وبحري إلى حدود الريف، وكانت عاصمة ملكه حيث تقوم ود حامد اليوم.

كان ملكاً ذا عزة ومنعة، جيش الجيوش وبنى مراكب الحرب فوق النيل، وأقام القلاع والحصون وعمر الكنائس وفرض الضرائب على القوافل، ثم لما دخلت جيوش العرب، اعترض سبيلهم «بندر شاه» هذا فهزموه شر هزيمة وفرقوا شمله شر مُمَزق وسبوا نساءه وغنموا أمواله وعبيده، ويقال إن بعض رقيق «بندر شاه» اعتنقوا الإسلام وبعضهم تفرقوا فـــي البلاد قبلي وبحري.

وفـــي رواية أخرى أن ذلك الملك لم يكن نصرانياً ولكنه كان ملكاً وثنياً غزا ذلك الإقليم بجيش عظيم من الجنود السود من أعالي النيل، وأنهم أقاموا فـــي نواحي «ود حامد» وما جاورها مملكة سوداء قوية لم تزل تأمر وتنهى حتى حطمها عبدالله جماع إبان صعود نجم مملكة سنار.

وقالوا إن اسمه لم يكن «بندر شاه» بل «بانقي» أو «جانقي» وأن من بقي من أمرائه وجنوده استرقوا لسوادهم بعد أن كانوا سادة أحراراً.

ويرجح بعض المؤرخين أن «بندر شاه» أمير حبشي يدعى «مندرسي» هرب بسبب صراعات على الملك أيّام الملك «راس تغري» الأكبر، ومعه نساؤه وعياله وعدد من جنده وعبيده، وأنهم عبروا النيل إلى المتعة، ثم قطعوا صحراء بيوضة إلى أن وصلوا إلى منعطف النهر حيث تقوم ود حامد الآن، فوجدوا ربوة عالية تشرف على سهل واسع خصيب، تحميه أرض صحراء عقبة من الشرق والغرب، وتلال حجرية من ناحية الجنوب، والنهر من ناحية الشمال، فأقاموا هنالك وبنوا بلداً أسموها «دبوراس» أي «الربوة» بلغتهم، حسبما تروي الأساطير وقالوا إن هذا الأمير «مندرسي» وجد معابر حجرية من عصور غابرة، فكسرها وبنى من حجارتها قصراً شامخاً على قمة الربوة، كان روعة في الجمال والمعمار، وحصناً حربياً حصيناً ظل يقاوم البلى ردحاً من الزمن.

وذكر أن هذا الأمير بلغ من سطوته أنه أخذ يغير شمالاً وجنوباً فـي عهود المسيحية المتأخرة، وأنه فرض الجزية على أمراء الممالك المجاورة، ثم إنه لما بلغ أشده وعظم شأنه، جمع جيشاً كبيراً عبر به صحراء بيوضة فـي خط مستقيم من الغرب إلى الشرق وعبر النيل عند بربر، ثم سار بجيشه محاذياً «الاتبراوي»، وظل يواصل السير نحو أرض الحبشة وفـي نيته أن ينزع الملك من النجاشي الحاكم فاستقبلته جيوش النجاشي على الحدود، فحاربهم وحاربوه أيّاما، ثم إنهم حملوا عليه حملة كبيرة فقتلوه ومزقوا جيشه فتبدد وذهب ريحه، ومما يذكر أن

من بقي منهم ذاب فــي بقية عناصر السكان، ويقال إن من بقاياهم قبيلة صغيرة فــي «ود حامد» يقال لهم «أولاد الحبشي» مشهورون بوسامة رجالهم وجمال نسائهم.

وفــي رواية «بندر شاه» لم يكن هذا ولا ذاك بل كان رجلاً أبيض اللون وفد على «ود حامد» من حيث لا يعلم أحد أيّام الغارات والهجمات أواخر أيّام ملوك سنار، وكانت «ود حامد» موجودة ومأهولة ومعروفة باسمه التي هي عليه الآن، فأقام فيها وأخذ يعمل فــي تجارة الرقيق، فكون من ذلك ثروة واسعة، ويقال إنه سخر عبيده فــي زراعة التمباك، وهو أمر لم تعرفه البلد من قبل ولم يعرف الناس بعد ذلك أنه ينبت فــي مثل تلك الأرض، وكان يجلب الرقيق وسن الفيل من أعالى النيل، ويسافر بذلك كله فــي قوافل عظيمة إلى بربر وسواكن وبلاد الريف، فجمع من ذلك مالاً ليس له حد ولا عد.

ويؤكد أنصار الرواية أن هذا هو «بندر شاه» الذي بنى القصر على قمة الربوة، وجاء له بعمد الرخام والبلاط المنقوش، وجعل سقفه من خشب الزان والتيك وعمل له سوراً عالياً من الحجر ذا باب من خشب الحراز عرضه بمقدار عشرة أذرع.

وذكروا أنه كان بتلك الدار نحو من خمسين غرفة تفتح على فناء واسع فــي الوسط، كما كانت بها مرابط خيل ومراحات إبل وحظائر بقر وأغنام وأن الدار كانت تسقى من ماء جارية لا تنقطع صيفاً ولا شتاء.

وصفة ذلك أن العبيد كانوا يرفعون الماء من بئر واسعة إلى خزان كبير الماء معمول على علو شاهق ومنه تنزل الماء فـي قنوات إلى كافة نواحي القصر.

كما وصفوا أن الداخل كان يجد على بوابة القصر حرساً سوداً طوالاً أشداء متمنطقين بالسيوف يقفون ديدبانات ليل نهار، ويعبر الإنسان الفناء الواسع ثم يصعد درجاً فيجد حراساً آخرين واقفين على جانبي باب سميك يدخل منه فإذا قاعة كبيرة مستطيلة الشكل فـي جانبها الذي يقابل الباب منصة مرتفعة عليها كرسي كبير من خشب أسود له مساند من العاج حيث يضع الجالس يديه على هيئته تنتهي بصورة محفورة على العاج على هيئة أسد رابض.

وقالوا إن القاعة كانت تضاء، بقناديل معلقة فـي السقف وأنها كانت تعبق ببخور عطر الرائحة متصاعد من مجامر موضوعة فـي كوى فـي الجدران.

وحدثوا أن أعظم متعة عند «بندر شاه» هذا، كان أن يجلس على ذلك العرش كلّ ليلة بعد أن يكون قد أكل حتى شبع وشرب حتى ثمل، فيُأمر بعبيده فيساقون إليه فـي أغلال الحديد ويأمر جلاديه فيجلدونهم، بسياط غليظة من جلد عجل البحر، حتى يُغمى عليهم وتسيل الدماء من ظهورهم ثم يأمر بهم فيُجَرون جراً، ثم يصفق فتدخل القاعة جوارٍ عاريات يرقصن ويغنين ويضربن بالدف والطنبور حتى يأخذ منه النعاس، وما أن

يتثاءب حتى تخلو القاعة ويحمله عبيده إلى غرفة نومه.

وذكروا أن «بندر شاه» قضى زمناً على هذه الصفة يسوم عبيده سوء العذاب، لا لذنب جنوه، ولكن متعة وتلذذاً، حتى كان ذات ليلة حين ثاروا ثورة رجل واحد، وانقضوا عليه فقتلوه ثم قطعوه قطعاً ورموا لحمه فــي بئر القصر وأحرقوا القصر بما فيه، وفروا كلهم تحت جنح الليل ولم يتخلف إلّا غُلام صغير أو رجل كبير أو امرأة طعنت فــي السن.

يذكرون أن القصر بقى حتى بعد أن حرقه العبيد أمداً طويلاً على هيئته التي كان عليها إلى أن رآه الأمير يوسف ود الدكيم الذي حكم ذلك الإقليم أيّام المهدية ولما رآه وقف عنده وتعجب لمنظره وسأل أهل البلد عمن بناه فذكروا له روايات متضاربة، ظل يحدق فــي البناء الشامخ وهو يردد «الله قادر، الله قادر»، قال «هذا البناء ما بناه ابن آدم وإنما عمل شياطين» ثم أمر جنوده فهدموا ما بقى منه وسووا به الأرض، ولم يبق منه اليوم إلّا قحوف حجارة وشظايا آمنة مدفونة فــي أكوام التراب العالية المكومة هناك فوق القلعة.

أما إبراهيم ود طه، وهو راوية ثقة فــي تاريخ ود حامد، فيؤكد أن «بلال» ليس من عبيد ملك نصراني ولا أمير حبشي ولا ملك وثنى ولا غير ذلك وإنما سيده شخص يعرفه كلّ أحد، ليس مجهول الحسب ولا مطعون النسب، وهو عيسى ود ضو البيت، ومعروف أن ضو البيت أبا عيسى كان رجلاً من الأشراف وفد على

ود حامد من الحجاز وتوطن فيها، وتزوج فاطمة بنت جبر الدار الأولى، من قبيلة الحوامده أصحاب الأصل والفصل، سادة ود حامد الذين سميت البلد باسمهم وهي غير «ود حامد» الأخرى فـــي الصعيد الموجودة قرب مدينة شندي، ويقول إبراهيم ود طه أن «بندر شاه» كان لقباً عرف به عيسى ود ضو البيت فـــي صباه، وهو من نوع مزاح الصبيان، أطلقه عليه ابن خالته حمد ود عبدالخالق ود حمد المعروف بولد حليمة.

ويوضح إبراهيم ود طه أن جبر الدار حفيد حامد الأكبر صاحب الاسم، أنجب ولداً واحداً هو رجب الذي سار عليه لقب «الله لينا» لجبنه، وأنجب أربع بنات كلّ واحدة منهن توازي مائة رجل، حليمة ومريم وميمونة وفاطمة، أما حليمة فقد تزوجها عبدالخالق ود حمد ذاك وأما مريم فقد تزوجها الشيخ محمود ود أحمد ود حامد ابن عم جبر الدار، وكان زعيم البلد فـــي زمانه، وأما ميمونة فقد تزوجها حسب الرسول ود مختار ولد حسب الرسول الملقب بالخمجان، وكان فارس فرسان ونزال ضيفان، وأما فاطمة وكانت صغراهن وأنجبهن، فقد تزوجها ضو البيت وأولدها ولداً واحداً هو عيسى ولد ضو البيت. وقد مات أبوه وهو فـــي بطن أمه، وترك له مالاً كثيراً، وكانت أمه تدلله فـــي صغره وتلبسه الثياب الزاهية الغالية التي لم يعرفها أهل البلد، لذلك كان الصبيان يتندرون عليه فسموه اسماً غريباً لم يلازمه طويلاً إذ نسيه الناس مع مرور الأيّام، وفاطمة هذه هي أم «أولاد ضو البيت»، وهم فرع من قبيلة الحوامده.

ويروي إبراهيم ود طه أن عيسى ود ضو البيت تزوج ابنة خاله رجب، فأولادها أحد عشر ابناً ذكراً، تلد له ولداً كلّ عامين، بانتظام وبلا تقديم أو تأخير، وأنها ظلت تلد حتى بعد أن تزوج أبناؤها، وكان يتفق أحياناً أن تكون هي نفساء وإلى جانبها زوجة ابن لها نفساء أيضاً، وظلت هكذا إلى أن ماتت وهي لم تبلغ بعد الأربعين.

ويؤكد إبراهيم ود طه أن «بلال» هو الابن الثاني عشر وليس ابن ضو البيت من جارية له سوداء جميلة ذكية كان يحبها ويؤثرها ولكنه لم يلحقه بنسبه ولما مات، خجل أخوته أن يسترقوه، ولكنهم استكبروا أن يعاملوه معاملة الحر ويشركوه فـــي ميراث أبيه.

لذلك نشأ بلال لا هو حر يقال له ابن فلان ولا عبد يقال له عبد فلان، وكان هو فـــي خاصّة نفسه، إنساناً عجيباً، جميل الهيئة جميل الطباع، متعففاً ورعاً، أخلاقه أخلاق سادة أماجد، ومن عجب أنه شب كأنه نزل فجأة من السماء، أو انشقت عنه الأرض، أو أنه طلع من النيل شخصاً كامل الهيئة والتكوين، فلا إنسان من أهل البلدة يذكره طفلاً ولا أحد يعلم من رباه، ولا أحد يقول لك رأيت «بلال» أو سمعت «بلال»، إلى أن ظهر فجأة وهو فتى يانع يلازم الشيخ نصرالله ود حبيب ويقوم على خدمته.

انتبه أهل البلد فجأة إلى هذا الإنسان البديع الذي يخلب

جماله القلب، ويفتت صوته الصخر ويلين الحديد، وكان حين ينادي مع الفجر بصوت الأعجم «أسهد ألّا إله إلّا الله أسهد أن محمداً رسول الله» تحس كأن ود حامد كلها بإنسها وحيوانها وشجرها وحجارتها ورملها وطينها من أسفلها إلى أعلاها من برها إلى بحرها، قد اهتزت وارتجت وأصابتها قشعريرة؛ لم يكن دعاؤه دعاء إلى الصلاة، وإنما كان دعاء الحياة منذ عهد آدم، ودعاء للموت منذ كان جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل.

كان يؤذن للصلوات الخمس كلّ يوم، لم يتخلف يوماً واحداً، إلى أن مات الشيخ نصرالله ود حبيب، فانقطع من الأذان واحتجب واختفى عن العيان، حتى كان أذانه المشهود يوم وفاته، وكان يختم أذاني العشاء والفجر دوماً بقوله «البدار البدار يا قوم يا قوم، المركب رمت البحر فريق أهل الله مسكوا الطريق، دا زمان صاحب الزمان، سلطان العصر، دا زمان نصرالله ود حبيب، دا زمان نصرالله ود حبيب».

وذكروا أن أوَّل عهده بمصاحبة الشيخ نصرالله ود حبيب كان وهو فتى يافع فوق الخامسة عشرة ودون العشرين ربما كان يضرب بعيداً في الخلاء يتقنت ويتعبد الله وهو يعلم، لأنه كان غير واضح في البلد كأنه ليس موجوداً فيها بالمرّة، وذات يوم والقوم في حلقة الشيخ نصرالله ود حبيب بعد صلاة الفجر وكانت تلك من عوائده، بعد أن يفرغ من صلاتي الفجر والعشاء، يمكث مقدار ساعة يرشد الناس، ويسألونه ويجيبهم، قالوا إنه فجأة صمت مدة وتغير وجهه، ثم صاح بأعلى صوته:

- إلينا يا بلال، إلينا يا بلال.

لم يفهم القوم ما يريد الشيخ وقالوا له:

- على من تنادي يا شيخنا.

فأجابهم بصوت مختلف:

- بلال الخير، بلال الخير، بلال الخير.

يردد الاسم هكذا ثلاث مرات.

أيضاً لم يفهموا، وصمتوا يفكرون برهة وفجأة قال أحدهم، كأنما نزل عليه وحي:

- الشيخ يقصد حسن.

ولما استوضحوا القائل أي حسن يعني، احتار كيف يصفه، ثم كأنما انجلت بهم الحقيقة كلها فـي آن واحد وصاحوا جميعاً:

- حسن ها الله ها الله.. العبد.

حينئذ خاطبهم الشيخ نصرالله ود حبيب، وهو فـي ما يشبه الغيبة:

- بلال ليس عبداً لأحد، بلال عبدالله والله لو علمتم أمره ما أعلم لتصدعت قلوبكم خشية ولأصابكم الجزع والبلبلة؛ إنه رأى وسمع ورقي إلى درجات تتقطع دونها القلوب حسرة، والله

إن «بلال» لو سأل الله لأبره ولو طلب من الحق جل وعلا أن يخسف بكم الأرض لفعل.

قال الشيخ هذا بصوت أصاب سامعيه بالهلع ثم أخذ ينادي من جديد:

- إلينا يا بلال إلينا يا بلال.

أقسموا أنه ما إن فرغ الشيخ نصرالله ود حبيب من ندائه، حتى سمعوا صوتاً يصيح عند باب المسجد:

- لبيك، لبيك.

ودخل عليه غبار سفر بعيد، حول رقبته مسبحة طويلة من اللا لوب وفـي يده ركوة جلد، فانكب على قدمي الشيخ يقبلها وهو يردد باكياً:

- لبيك لبيك يا سيدي.

أنهضه الشيخ وعانقه وقبله على خديه وبين عينيه وقال له وعيناه تدمعان:

- لماذا يا أخي تبتعد عني هذا البعاد أما كفاك وكفاني، ترفق بنفسك يا حبيبي فإنك قد تبوأت رتبة قل من وصل إليها من المحبين الخاشعين، وإننى أركض فلا أكاد ألحق بغبارك.

قالوا بكى بلال حتى كادت روحه تزهق وهو يردد:

– يا سيدى لا تقل هذا الكلام، أنت القطب أنت صاحب الزما ن وأنا عبدك ومملوكك.

قالوا وأراد الشيخ أن يجعله منه بمقام الأخ فأبى البتة وحلف ألّا يكون له إلّا بمقام المملوك من سيده فأذعن الشيخ، ونفسه تأبى ذلك، وكان بلال يقوم على خدمة الشيخ نصرالله ود حبيب بالليل والنهار يملأ له ركوة صلاته، ويحضر له طعامه، وإذا مشى الشيخ فــي الحر، يحمل فوق رأسه مظلة خضراء كبيرة وإذا ركب الشيخ لأمر، وقلما كان يفعل ذلك، يصحبه راجلاً ممسكا بعنان جواده، وكان يأبى أن يجلس فــي حضرة الشيخ نصرالله ود حبيب، ولا ترضى نفسه إلّا الوقوف أو يقعد عند مجلسه كأنه كلب أبيض وكان الشيخ نصرالله ود حبيب يرى منه ذلك، فيقول له:

– يا بلال يا بلال، لماذا تريد أن تهيننا بإذلالك لنفسك؟

قالوا وكان الشيخ نصرالله ود حبيب قطب زمانه بلا نزاع كان الناس يقصدونه من أطراف الأرض طلباً لعلمه وتبركاً بصحبته، يجيئونه فــي قوافل من ديار المغرب وتونس ومصر والشام وبلاد الهوسة والفلاني يحملون إليه الهدايا النفيسة فيغدقها على الناس فــي مجلسه ولا يدخل داره منها شيء، ولما ظهر الإمام محمد أحمد المهدى كتب إليه يدعوه إلى مبايعته، فكتب إليه الشيخ نصر الله ود حبيب يقول:

أما بعد، فإنا لا نصدع إلّا لأمر الملك الواحد الأحد، فإن كنت

مهدياً فالله العلى القدير يزيدك هدى فهو صاحب العز ويختار من عباده من يشاء، فامض على كتاب الله وسنة نبيه فإنك لن تضل مع ذلك باسم الملك القدوس الرحمن الرحيم، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك عمن يشاء.

ورووا أنه لم يكن يخوض فـي أمر المهدي، لا بتأييد ولا بإنكار، وترك أصحابه لا يرد أحداً منهم أراد أن يلحق بصاحب تلك الدعوة، فلم يذهب منهم إلّا نفر قليل.

ولما آل الأمر إلى الخليفة عبدالله التعايشي أرسل إليه يأمره أن يقدم عليه فـي أم درمان، فرد عليه بغليظ القول مما أغضب الخليفة، فأراد أن يسير إليه من عسكره من يمسكونه ويحملونه صاغراً إلى الخليفة، ولكنه أحبط فـي يد الخليفة فلم يفعل شيئاً مما عزم عليه.

وذكروا أن الشيخ نصرالله ود حبيب كان يقول، وهو يعني الخليفة عبدالله التعايشي:

«والله والله الذي لا إله غيره، إن أمراء المسلمين، إذا أخذ منهم الاغترار، وتزينت لهم الدنيا وهي دار البوار وأعجبتهم حالهم وكثرة أنصارهم وسكروا بكأس السلطان وبدا لهم أنهم أقوياء مخلدون فـي محابسهم، ضربهم الله بصولجان عزته، وقصم ظهورهم بسيف نقمته، وسلط عليهم سيوف أهل الكفر، ومكن منهم أعداءهم، وأخرج لهم من مكامن جحورهم من يكيدون لهم

ويغالبونهم حتى يذهب الغالب والمغلوب، والطالب والمطلوب، فينقلبوا وكأنهم أعجاز نخل خاوية، أو كهباء ذرته الريح فــي يوم صفصف كما فعل الله بقوم عاد وثمود، فالبدار البدار».

قالوا، وكانت فــي ود حامد امرأة صاعقة الحسن تدعى حواء بنت العريبي، هبطت من ديار الكبابيش مع أبويها فــي سنوات قحط وجدب، فماتا عنها، وبقيت وحدها، تمشط وتغزل وتعمل فــي دور الميسورين فــي البلد، ووصفوا أن وجهها كان كفلق الصباح، وشعرها أسود كالليل مسدل فوق ظهرها إلى عجيزتها، وأنها كانت فرعاء لقاء، طويلة رموش العينين، أسيلة الخدين، كان فــي فمها مشتار عسل، وأنها كانت مع ذلك شديدة الذكاء، قوية العين، مهذار، حلوة الحديث، متبرجة، فــي حديثها شيء من تفحش وغنج، فأرادها الكثيرون ومنهم بعض سراة أهل البلد، فتمنعت واعتصمت ولم تقبل منهم طالب حلال أو حرام.

قالوا، ولم يعلق قلب حواء هذه من دون الناس جميعا إلّا ببلال، فكانت تعرض له وهو فــي صلاته وعبادته، فلا يرد عليها ولا يجاوبها، وظن الناس أوَّل الأمر، أنها إنما تعبث به، ثم تيقنوا أنها، ويا للعجب، قد هامت به هياما كاد يذهبها عن نفسها، ولما أعيتها الحيلة ذهبت إلى الشيخ نصرالله ود حبيب، وشكت له وتذللت وتضرعت، فأشار على بلال أن يتزوجها فقال له:

– يا سيدي روحي فداك لكن لا تخفــى عليك خافية من

أحوال عبدك المسكين، أنا ماشي فــي دروب أهل الحضرة، وأنت تأمرني بأفعال أهل الدنيا؟

فقال له الشيخ:

– يا بلال إن دروب الوصول مثل الصعود فــي مسالك الجبال الوعرة مشيئة الحق غامضة يا بلال، إن حب بعض العباد من حب الله، وهذه المسكينة تحبك حباً لا أجده من جنس حب أهل الدنيا، فعسى الحق أن يكون أرسلها إليك لأمر أراده، عساه جلت مشيئته أراد لك أن يختبر مقدار حبك بميزان حب هذه المسكينة فإما صحوت وانقطع سبيلك وإما ازددت ظمأ إلى كأس الحب السرمدي ويكون سبحانه وتعالى قد أنفذ مشيئته بإذلالك فــي إرادته القصوي.

فصدع بلال لأمر شيخه وتزوج حواء.

قالوا، ولم يجتمع بها إلّا ليلة واحدة، بعدها استأذن شيخه أن يسمح له بأن يبرئ ذمته منها فأذن له وكانت قد حبلت منه فــي تلك الليلة، بابنه الذي سمى الطاهر، وغلب عليه اسم الطاهر ود الرواسي، وبعد أن سرحها بلال، أبت أن تدخل على رجل آخر وانصرفت لتربية ابنها، فكان شأنها فــي ذلك شأن المتصوفة العاكفين، وذكروا أنها لما رحلت عن الدنيا وهي تناهز السبعين، كانت على أبهى هيئتها وحسنها لم ينقص من جمالها مثقال ذرة، ولم يغير الزمن منها مقدار شعره، فكأنها كانت من تصاريفه فــي حصن حصين.

يقول الطاهر ود الرواسي:

– ما رأيت حباً مثل حب تلك الأم، وما شفت حناناً مثل حنان تلك الأم، ملأت قلبي بالمحبة حتى صرت مثل نبع لا ينضب، ويوم الحساب، يوم يقف الخلق بين يدي ذي العزة والجلال، شايلين صلاتهم وزكاتهم وحجهم وصيامهم وهجودهم وسجودهم، سوف أقول: يا صاحب الجلالة والجبروت، عبدك المسكين الطاهر ود بلال، ولد حواء بنت العريبي، يقف بين يديك خالي الجراب، مقطع الأسباب، ما عنده شيء يضعه فــي ميزان عدلك سوى المحبة.


13
SWAHI 77

(5)

نادى سعيد عشا البايتات فــي ذلك الفجر بصوت كأنه مغناطيس، علق به غبار الأحلام الموءودة، وكانت هبوب أمشير تردد نداء مريم:

«يا مريود، يا مريود، أنت لا أحد، أنت لا شيء يا مريود».

استقبلتني عند الباب، ورأيتها تختفــي وتبين، إلى أن قال الناس «ولا الضالين آمين»، كان العطر الذي لاحقني كلّ تلك الأعوام يعبق من أرجاء الكون يذكرني بمريم تعد على أصابع يدها وتقول:

- أحمد، محمد، محمود، حامد، حمد، حمدان...

- الأبناء أكثر من الأسماء يا مريوم.

تضحك وتقول:

– نتمهم عشرة بالبنات.

دفناها عند المغيب كأننا نغرس نخلة، أو نستودع باطن الأرض سراً غريزاً، سوف تتمخض عنه فــي المستقبل بشكل من الأشكال، محجوب قبّل خدها، وأنا قبّلت جبهتها، وكاد الطريفــي يهلَك من البكاء، وحملناها برفق نحن الستة ووضعناها على حافة القبر.

أسمع ذلك الصوت الذي ليس مثله صوت يجيئني من بعيد مثل نای سحري، فــي غلالة من أضواء الأقمار فــي ليالي الصيف، ولمع الشعاع على سعف النخل الندیّ، ووهج النوار فــي حدائق البرتقال، تقول وهي تجر عمامتي من رأسي:

– نسكن البندر، سامع؟ البندر، المويه بالأنابيب والنور بالكهرباء والسفر سكة حديد، فاهم؟

أتمبيلات وقطورات، اسبتانيات ومدارس وحاجات وحاجات، البندر، فاهم؟ الله يلعن ود حامد، سجم ورماد، فيها المرض والموت ووجع الراس، أولادنا كلهم يطلعوا أفندية، فاهم؟ زراعة أبداً، وحياة محجوب أخوى زراعة ما نزرعها أبداً.

أحسست بها خفيفة بين ذراعي وأنا أنزل بها فــي القبر، كان نهدها يضغط على صدري ونحن متماسكان فــي الماء، نغطس ونطفو، وغضت طرفها وعضضت طرفــي ولم تذهب المدرسة بعد ذلك، وكان السر قد انكشف، أغيظها بضحكي وأسألها من

أعمال أولادنا، فتفكر بحزم وتقول وهي تعد على أصابع يدها:

- أحمد يطلع مدير

- مدير شنو؟

- مدير أي حاجة.

- ما شاء الله، ومحمد؟

- محمد يطلع محامي.

- عجايب، ما أخير قاضي يا مريوم.

- محامي عشان يدافع عن المظلومين، القاضي قالوا يدخل النار.

- زين، ومحمود؟

- محمود.. محمود.. محمود يطلع حكيم.

- ها الله ها الله، بقيتي أم الحكماء، والخامس اسمه مين يطلع شنو؟

- حمد، حمد يطلع مهندس.

- مهندس؟ الله أكبر، والسادس؟

- حمدان يطلع ناظر.

– ناظر محطة؟

– ناظر مدرسة.

– مثل مدرسة ود حامد؟

– ود حامد إن شاء الله تغطس فـي الأرض مدرسة كبيرة من الحجر والطوب الأحمر وسط الجناين.

– وبقية العشرة الكرام؟

– الباقين إذا طلعوا أولاد أو بنات يكونوا كلهم معلمين أو حكماء.

– البنات كمان؟

– ليه لا؟

– طيب ومتين تولدي الأمة دي كلها؟ وقت يصل عاشر واحد يكون عمرك خمسين سنة.

– أبداً، عشرين بالكتير إذا بدينا السنة الجاية.

– وتتزوج السنة الجاية؟

– ليه لا؟

أضحك وأتقلب فـي الرمل من شدة الضحك، فلم أكن قد بلغت الثالثة عشرة بعد، وكانت مريم دون العاشرة، تضربني

على صدري وظهري بكلتا قبضتيها وتجر عمامتي وثوبي، وتغضب حقيقة.

أجلس وأقول لها بجد متصنع وأنا أعد على أصابع يدها:

– اسمعي يا غشيمة، أولادنا يطلعوا زي كده، أحمد زراع، محمد زراع، حمد يطلع شيخ الصعاليك، حامد يطلع مداح، يمدح الرسول مثل حاج الماجي زمان، وأحمد ود سعيد اليوم فـــي العفاض[1].

تقول مريم بغيظ:

– الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تزيد، وعيناها العسليتان الواسعتان تلمعان بالغضب:

– محمد أوَّل وبعدين محمود.

– قبله أو بعده، الحكاية واحدة، كلهم مزارعين.

تقول مريم، وهي مثل نسر يوشك أن ينقض:

– أها وحمدان؟

أسكت برهة وأنا أكاد لا أقوى على حبس الضحك، وصدر مريم يصعد ويهبط بالغيظ:

(1) العفاض اسم بلدة شمال السودان شرقي النيل بين مروى ودنقلا وهي منبع قبيلة الركابية المعروفة.

– حمدان عندي ليه وظيفة كبيرة، حمدان، يا ست الحسن والجمال، يطلع رئيس.. رئيس.. رئيس الحرامية فـي المديرية الشمالية.

تنشب أظافرها فـي وجهي وتضربني بقبضة يدها الصغيرة، وتعضني، وتركلني برجلها، وأنا أضحك متقلباً فـي الرمل، وهي تصرخ:

– أبداً، أبداً، أبداً.

ونحن على تلك الحالة، يجيئ محجوب، فأحكي له الحكاية، يقول محجوب:

– ليش نأخر الزواج للسنة الجاية؟ باكر على طول تعمل العقد، مريم خلاص استوت للزواج ولا يمكن نخليها تنتظر سنة كمان.

ونظل نعابثها هكذا حتى تشرد منا باكية.

لكننا كنا أعز إنسانين لديها، أنا قطب أحلامها مستقبلاً فـي المدينة، ومحجوب أخاها الأوحد بين أربع بنات، مريم صغراهن.

نظرت إليه وسط الجمع ذلك المساء، وقد لفته أشعة الشمس الغاربة، غاضباً شرساً، كأن الموت خصم أرسلته الحكومة، كان يأمر وينهى بصوت أخرش، وقد أسلم الناس قيادهم إليه، كان زعيماً مطلق السلطان ذلك المساء، كما لن يكون بعد، نشطاً

متحفزاً كحيوان مفترس يتأهب للانقضاض فــي أية لحظة، وسلطان الموت لا يطال، أما أنا فقد كنت حزيناً بشكل آخر.

كنت أراها سابحة على موجة تسافر وتعود، والدنيا تبتسم بوجه طفل، عيناها العسليتان تزحمان الوجه، وحاجباها النبيلان ينعقدان فوقهما، وثغرها مثل برق يشيل ويحط، كان الطريفــي يبكي حتى كاد يهلك، وأنا أحس فــي قلبي بفجيعة مثل الفرح.

مضوا يحفرون القبر وأنا أرى مريم طفلة دون الرابعة، تقرأ معنا القرآن فــي خلوة[1] حاج سعيد، فعلت ذلك قدرة واقتدار، لا راد لرغبتها العارمة فــي فلك طلاسم الحروف، تجيء فنطردها فلا تطرد، فاضررنا أنا ومحجوب أنا نعلمها، فكأننا أطلقنا جناً من قمقم، أخذت تقرأ وتحفظ وتفهم، حتى لحقت بها وكادت تفوتنا وصارت تقارعنا الآية بالآية والسورة بالسورة، حتى ضقنا بها ذرعاً، ولما دخلنا المدرسة سعدنا أننا نتعلم أشياء لا تفهمها، ونرجع فنقرأ لها التاريخ والجغرافيا والحساب، نغيظها بذلك، فأخذت تمالئنا وتستعطفنا لنأخذها معنا، قلنا لها:

- المدرسة للأولاد، ما فــي بنات فــي المدرسة.

قالت وكأنها قد فكرت فــي الأمر ملياً:

(1) الخلوة، فــي السودان، مدرسة لتعليم القرآن، وكانت وسيلة التعليم التقليدية قبل دخول نظم التعليم الحديثة.

– يمكن إذا شافوني يقبلوني، ضحكت وقلت لها:

– وانت إيه العجيب فيك إذا شافوك يقبلوك؟

وأضاف محجوب:

– [1] «إنت فاكرة نفسك بدر البدور؟ قبيحة ونحيفة زي الجرادة».

لم تكترث لمعابثتنا وقالت بجد:

– إذا شافوني أقرأ وأكتب، الحكاية مش قراية وكتابة؟ إيه الفرق بين الولد والبنت؟

قال محجوب:

– نظام الحكومة كدا، مدرسة للأولاد يعني للأولاد، إنت عاوزة الحكومة تعمل لك نظام مخصوص؟

قالت:

– ليه لا؟

ضحكنا، لأن تلك كانت عادة مريم، تظن كلّ شيء ممكناً.

بغتة قالت، وكانت قد طلبت الأمر في ذهنها الحديد، وانتهت إلى حل:

(1) «إنت فاكرة نفسك» هل تظنين أنك...؟

قالت وعيناها الجميلتان الذكيتان تستشرفان فوق رأسينا إلى بعيد:

- خلاص، مادام الحكومة لا تقبل غير الأولاد، أصير ولد.

كتمنا دهشتنا واستوضحناها قصدها.

- يعني أمشي معاكم للمدرسة كأنني ولد.

محجوب سألها بسخرية:

- انت تبقي ولد؟

وأنا سألتها بسخرية أشد:

- انت تبقي ولد؟

قالت وقد تعلقت عيناها الجميلتان بأفق بعيد، تراه هي ونحن لا نراه:

- ليه لا؟ مادامت الحكومة ما تقبل إلّا الأولاد، ألبس جلابية وعمة وأمشي معاكم، مثلي مثلكم، ما فــي أي إنسان يعرف أي حاجة.

إيه الفرق بين الولد والبنت؟

ضحكنا أنا ومحجوب بوسائل شتى؟ سخرية بها، وإغاظة لها، وإعجاباً وحباً، قال لها محجوب:

– عندك أن البنت مثل الولد؟

– ليش لا؟

وأنا سألتها:

– ما فــي أي فرق؟

قالت:

– أبداً.

وقال لها محجوب:

– الخالق الناطق؟

– ليش لا؟

قلت لها:

– مثلي مثلك؟

– إلّا...

قلت أستحثها:

– إلّا...؟

قالت:

– السجم [1]

قال محجوب وهو يقهقه ساخراً:

– سجم خشمك*.

لكنها لم تكن خجلة، واجهتنا بغتة، فرأينا أضواء ذلك الأفق البعيد، تتوهج على جبهتها وحول عينيها، نظرنا بعضنا إلى بعض كالمسحورين، وقلنا أنا ومحجوب بصوت واحد، وقد بدأ بذلك الأفق البعيد يتراءى لنا نحن أيضا:

– صحيح، ليش لا؟

خلت أصواتنا من السخرية واتخذت نبرات فيها رهبة.

قال محجوب:

– أصل الفصول فـــي المدرسة ناقصة.

وأنا قلت:

– والناظر كلّ يوم على حماره قبلي وبحري يترجى الناس يجيبوا أولادهم للمدرسة...

وقالت مريم:

– وأنا طول اليوم ما عندي شغل، أدخل بيت وأمرق فـــي

(1) «السجم»، ومعناها ما يعلق بالقدرة من ذرات الرماد الناعم، فـــي هذا السياق، كلمة تقولها المرأة عند الخجل.

بيت.

وقال محجوب:

– ومريم فالحة.

وأنا قلت:

– وعندها رغبة.

ومريم قالت:

– وخسارة ما...

قلنا نحن الثلاثة بصوت واحد، كأننا جوقة تنشد لفجر أخذ يطلع:

– صحيح ليش لا.

قالت فـــي ذلك الضحى، ولم أكن أعلم حينئذ أن الحبل الذي بيني وبينها سوف ينقطع وشيكا وإلى الأبد:

– خلاص الزواج الليلة، لكين أنا، لسع* ما حضرت حالي.

محجوب لم يفهم، ولكنني أدركت فوراً ما تعني، قلت لها:

– إن شاء الله كلّ شيء يتم بخير.

ما تشفقي أبداً.

لم تكن بها عجلة، ولم تلزم فراشها غير يوم واحد، كأنها قررت أن ترحل فجأة، كان كلّ الذي حدث لم يحدث، هو على يمينها وأنا على يسارها، وحدنا معها، كما أرادت، كانت خضلة مثل عروس، ليس بها شيء، سوى بعض حبات العرق على جبهتها، كان وجهها متألقاً وعيناها تتلامعان مثل البروق.

نظرتْ إليَّ وهلة كأنها لا تعرفني، ثم قالت وهي تنظر إلى محجوب:

– بس مريود لسع ما وصل، كيف يحصل الزواج ومريود لسع ما رجع من السفر.

حينئذ فهم محجوب، فأجهش بالبكاء، قال لها وهو يبكي:

– مريود وصل، كلّ شيء حاضر للزواج.

قالت بفرح:

– رجع؟ متين؟

قلت لها:

– أنا مريود يا مريوم، طبعاً العقد يتم الليلة، كلّ شيء جاهز.

تمعنت فــي وجهي، وبان الغضب فــي عينيها، وعادت كما أذكرها منذ أربعين عاماً أو يزيد:

– أنت ما مريود، أنت بكري، أبداً ما أتزوج بكري، أبداً، أبداً.

قال لها محجوب:

– كيفن ما هو مريود؟[1] يا هو ذاته ذاته، يا دوب وصل من السفر.

تفرست فــي وجهي من جديد، قلت لها:

– أنت غبيانة ولا شنو يا مريوم؟

قالت بصوت آخر، كأنها شخص آخر:

– العيون عيون مريود، والخشم خشم مريود، والحس حس مريود، لكين انت ما مريود، مريود أصغر، أبداً أنت ما مريود، أنت منو؟

صمتت قليلاً ثم قالت:

– يمكن أنت مريود، أنت مريود وما مريود، زول وما زول، أنت لا أي زول ولا أي شيء، ثم بكت وقالت:

– خسارة، مريود مات، وأنا يزوجوني بكري، أبداً، أحسن أنا كمان أموت ولا أتزوج بكري.

بعد ذلك غفت وسكنت، فحسبناها قد ذهبت عنا، لكنها استيقظت فجأة، وكان وجهها وكل ما بها، ونحن وإياها، كأن هوادج أحباب أخذت ترحل.

(1) الخشم فــي لهجة أهل السودان هي الفم.

قالت

- [1] بسراع، بسراع، المواعيد جات، الوقت قرب، خلاص أنا بقيت للسفر، أحسن نتوادع من هسع، مع السلامة، مع السلامة، أبقو عشرة على رقبتكم، والوليدات...

محجوب قبل خدها وهو يغالب الدموع فتغلبه، وانحنيت عليها وقبلت جبهتها، فتشبثت بي وطوقتني بذراعيها، فأحسست بها مثل سر عزيز، مثل شيء عسير مستحيل، ذلك العطر، ذلك الشباب، ذلك الحلم، دارت عجلة الزمان القهقرَى، حتى توقفت عند ليلة صيف قمراء، ليست من ليالي هذا الزمان ولا هذه الأرض، وسمعت حس بكائي كأن أحداً غيري يبكي الدموع التي ظلت حبيسة كلّ تلك الأعوام، هذه حصتي من كلّ شيء، هذا نصيبي وإرثي، مات عنها وتركها لي لتموت على صدري، لعلني لهذا عدت.

كانت مثل طائر، رفعها محجوب من نعشها فشهق ضوء المصابيح على حافة القبر، وسمعت هبوب أمشير تناديني بلسان مريم لا شيء، لا أحد خطا بها نحو القبر، فاعترضت طريقه ومددت يدي، نظر إلي برهة، ورأيت عينيه ترقان وتغرورقان، فتركها لي، كانت خفيفة مثل فرخ طائر وأنا أسير بها فـــي طريق طويل يمتد من بلد إلى بلد ومن سهل إلى جبل، لم يكن حلماً، أبداً، كانت مريم نائمة على كتفي، سرت بها على ضفة نهر إلى

(1) لسع: حتى هذه الساعة. * يا هو ذاته ذاته، أي هو بعينه * بسراع، بسرعة * تقلع، تطفو.

وقت الضحى، فأيقظها لفح الشمس على وجهها، انفلتت مني وقفزت فــي الماء، كانت عارية، أشحت عنها، ولكنني لم أطق صبراً فأدرت لها وجهي، نظرت، فإذا هي فــي بركة من الضوء، وكأن أشعة الشمس هجرت كلّ شيء وتعلقت بجسدها، كانت تغطس ❋ وتقلع، وتختفــي هنا وتظهر هناك وتضحك لى من جهة اليمين، ثم إذا هي تناديني من جهة اليسار، نعم، نعم، نعم، أريد أن أغرق فــي نبع ذلك الضوء الذي ليس من أضواء هذا الزمان ولا هذه الأرض، لكنني ترددت، ليس أكثر مما يطرف جفن العين، فــي تلك اللحظة، عاد الشعاع إلى منبعه، وذهب الطيف، لا أعلم إلى أين، ناديت بأعلى صوتي «يا مريوم، يا مريوم» فعاد الصدى مجسماً بألسنة شتى «يا مريود، يا مريود» ضربت دون هدى فــي صحراء عقبة تويوي ريحها وتتهايل رمالها، حتى بلغ مني اليأس وأخذ مني الجهد، ثم إذا شجرة طلح يلمع نوارها تهالكت عندها، فجأة أحسست بمريم، بعيد العشاء أو قبيل الفجر، لا أعلم، لكنني أذكر ظلاماً رهيفاً وضوءًا ينسكب على وجهي من عينيها، شربت منه حتى بلغ مني الظمأ غايته، قلت لها:

– ألا أسير معك؟ فإنني الآن أقوى.

قالت:

– لكنني...

قالت:

– إنك لن تستطيع معي صبراً، فوراء هذه البيداء جبال، ووراء الجبال بحر، ووراء البحر لا ذا ولا ذا، النداء لي وحدي، أنت تعود وأنا أمضي.

ثم أخذت رأسي ووضعته فـي حجرها، وهدهدتني زمناً بصوت كأنه ربيب نمال فـي تلال رمال، وقالت لي:

– لا تبتئس يا ضوء عيني فإنني لن أبعد، سوف تراني وتسمع صوتي قلت وأنا لست أنا:

– هيهات، هيهات.

حينئذ قبلتني بين عيني، وابتسمت بكل جمال وجهها فـي وجهي، وقالت:

– بلى بلى يا رُمانة قلبي، إذا احتجتني فادعني فسوف أجيء.

قلت:

– هيهات، هيهات.

قالت:

– لكن عليك أن تصبر وتذعن.

قلت:

– إذاً اجعلي لي آية.

قالت:

– آيتك ماء، آيتك ماء، أبداً تتلفت خلفك، آيتك أن تظل يقظان إلى آخر العهد، ستراني وسوف أعينك قدر المستطاع.

قلت:

– فلأسر معك خطوات أقدامك.

قالت:

– لا يا تفاحة فؤادي، هنا مفترق الطرق وإنه الوداع.

عصر الحزن قلبي عصراً، ولم أجد الدمع الذي أبرد به حر جوفــي لأنها سلبتني نعمة البكاء.

قلت لها:

– إذا زوديني.

قالت

– لا

قلت:

– زوديني.

قالت:

- لا.

قلت:

- زوديني.

قالت:

لا.

قلت:

- زوديني.

قالت:

- واحسرتا عليك يا محبوبي، خير الزاد أنا، وإنني مفارقتك من هنا، لا شبع لك من بعدي ولا ري، ولا شفيع ولا نجي، فاضرب حيث شئت، وتزود إن استطعت واطلب النجاء، إلى أن تلقاني فأعطيك المن والسلوى.

ثم أبعدت، وسمعت صوتها كأنه ينزل من السماء، ويحيط بي من النواحي كافة، تطويه رياح وتنشره رياح:

- يا مريود، أنت لا شيء، أنت لا أحد يا مريود، أنت اخترت جدك وجدك اختارك لأنكما أرجح فـي موازين أهل الدنيا، وأبوك أرجح منك ومن جدك فـي ميزان العدل، لقد أحب بلا ملل، وأعطى بلا أمل، وحسا كما يحسو الطائر، وأقام على

سفر، وفارق على عجل، حلم أحلام الضعفاء، وتزود من زاد الفقراء، وراودته نفسه على المجد فزجرها، ولما نادته الحياة... لما نادته الحياة...

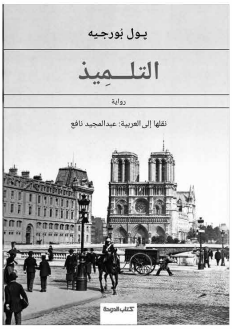
قلت نعم، قلت نعم، قلت نعم، ولكن طريق العودة كان أشق لأنني كنت قد نسيت...

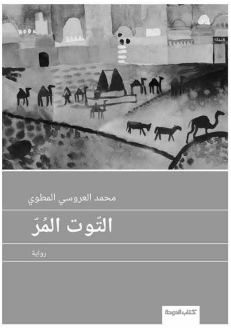
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

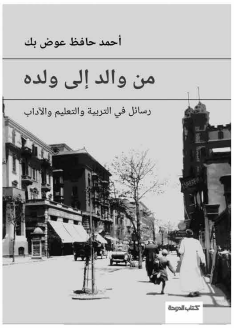
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار

34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحوُّلات الصفوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمد فريد سيالة

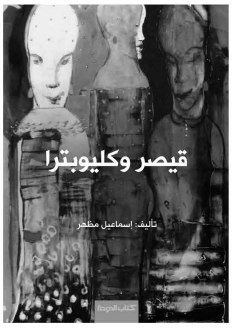
صدر في سلسلة كتاب الدوحة

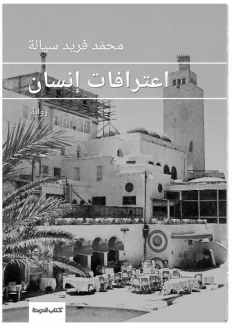












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

مريود، هو عنوان الجزء الثاني من رواية «بندر شاه»، وكان الرّوائي السوداني الطيب صالح قد نشر الجزء الأوّل منها بعنوان «ضو البيت» منذ مطلع السبعينيات، إنها ليست حكاية تتوالى أحداثها بشكلٍ منطقي في حساب الزمان والمكان، ولكنها مجموعة من اللوحات أو المواقف، ترمي في مجموعها، كما ترمي رواية «بندر شاه» ككل، إلى رسم خريطة فَنّية، لبلدة «ود حامد» عبر أجيال متعاقبة وأزمنة تضرب بعيداً في أحشاء الماضي، حيث تبرز الشخصيات ثم تذوب لتتشكّل من جديد، في إطار أحداث بأزمنةٍ وظروف مختلفة. ولَعلّ أسلوب الطيب صالح في هذه الرواية، أشبه ما يكون بطريقة عالِم الآثار الذي يُنقّب في تلٍ أثري، وفوق هذا التل الأثري تقوم بلدة «ود حامد» التي عاد إليها الرَّاوي «محيميد» بعد غيبةٍ طويلة..

(مجلّة الدوحة 1977)